الفصل الثامن

الغزوة الاستعمارية للمشرق العربى

١ - المجتمع العربى فى المشرق .
٢ - الحركة القومية العربية .
٣ - الثورة العربية الكبرى .

١ - المجتمع العربى فى المشرق

كان المجتمع العربى فى أوائل القرن التاسع عشر مجتمعاً زراعيا يخضع لنظام إنتاجى من نوع خاص ، تجتمع فيه الملكية الجماعية السائدة فى نمط الإنتاج الآسيوى مع وجود الملكية الفردية السائدة فى النظام الإقطاعى الغربى . وكان العثمانيون بعد فتحهم للمشرق العربى قد نقلوا ملكية جميع الأراضى العربية إلى السلطان العثمانى ، وقاموا بتوزيعها على الفلاحين لزراعتها ، وأعطوهم فيها حق الانتفاع مقابل دفع ضريبتها ، ثم أحصوا القرى فى كل بلد ، وقاموا بتقسيمها إلى إقطاعيات مختلفة الأحجام منحت على أساس طبقى للقواد وكبار الموظفين وحكام الآلايات والألوية حسب أهميتهم ، بالإضافة إلى أفراد آخرين بصفتهم ملتزمين . ولم يكن منح هذه الإقطاعيات لأحد من هؤلاء يعنى تمليكه إياها ، بل يعنى تفويضه فى حق جباية الضرائب والعشور وسائر الرسوم من الفلاحين .

وقد بقى هذا النظام حتى أوائل القرن التاسع عشر حين كثر استبداد الإقطاعيين بالأراضى ، وأحجم الكثير عن دفع الأموال المترتبة عليها ، فضلا عن انتقال كثير من الإقطاعيات والالتزامات ، مع مرور الزمن ، إلى ما يقرب من التملك الشخصى ، ولجوء كثير من الزعماء الإقطاعيين إلى شق عصا الطاعة ، وعدم أداء الخدمات المطلوبة منهم للدولة . فلجأت الدولة العثمانية ، فى النصف الأول من القرن التاسع عشر إلى وقف الإقطاعيات التى توفى أصحابها أو انتهت مدة إقطاعهم ، وإدخال إيرادها فى الأوقاف العامة . فكان وقف هذه الإقطاعيات خطوة هامة فى إلغاء النظام الإقطاعى فى الدولة .

على كل حال ، فإن هذا الجانب من الأراضى كان ينحصر فى أراضى

الدولة . وإلى جواره كان يوجد جانبان آخران : الأول ، يتمثل فى الأوقاف فى سوريا والعراق ومصر ، وهى أراضى محبوسة على المؤسسات الدينية والأغراض الخيرية أشبه بالملك الخاص . والثانى ، ويتمثل فى الأراضى المملوكة ملكية فردية . ولكن هذه الملكية الفردية لم تكن تمثل علاقة إنتاج رئيسية فى المجتمع ، وإنما علاقة إنتاج ثانوية .

ولم يكن هناك تناقض حضارى كبير بين المدن العربية والريف ، كما هو الحال فى الغرب ، فلم تكن المدن تعدو أن تكون قرى ذات صبغة حضرية ، ومعظم سكانها يعيشون على الزراعة بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ، وتخضع لسيطرة كبار الملاك وأصحاب الإقطاعيات والملتزمين ، الذين كانت إقامتهم الدائمة المفضلة فى المدن .

وبرغم أن التجار لم ينجوا من ابتزاز الطبقة الحاكمة ، فإنهم كانوا مع الكتبة والعلماء يكونون طبقة وسطى بإمكانها الضغط على الإدارة . وقد أمكن لكثير من أسر التجار حتى فى القرن الثامن عشر أن تحصل على ثروات ضخمة ، وأن تصاهر البكوات والأرستقراطية العسكرية . على أن التجارة الخارجية لم تكن تعود بفائدة كبيرة على البلاد العربية لسببين :

الأول : أن الواردات كانت تتكون من المواد الصناعية والبضائع الكمالية للأغنياء ، على حين كانت الصادرات تتكون من المواد الخام غير المصنوعة .

ثانيا : أن التجارة الخارجية كان يقع معظمها فى أيدى الأوروبيين والليفانتيين واليهود ، وليس فى أيدى العرب . وهذا يفسر ضعف البورجوازية العربية ، وعجزها عن القيام بدور مثيلتها فى البلاد الأوربية .

وقد خضع المجتمع العربى فى المشرق لعاملين متناقضين ، كان لهما تأثيرهما فى تأخر الوعى القومى بالمعنى الحديث ، فى مواجهة السيطرة العثمانية .

العامل الأول : وهو عامل توحيد ، ولكنه توحيد على نطاق أوسع من النطاق القومى ، ويتمثل فى الفكرة الإسلامية .

والعالم الثانى : وهو عامل تفتيت ، ويتمثل فى نظام الطوائف .

وبالنسبة للعامل الأول ، ففى ذلك الحين كان المفهوم الإسلامى للجماعة يتغلب على كل مفهوم قومى ، وكان العالم العربى فى المشرق يعيش بالتالى فى ظل أيديولوجية الجامعة الإسلامية ، وكان الإحساس بالقومية العربية معدوماً ، لأن لفظة « عربى » ذاتها كانت ذات مدلول يقتصر على العناصر البدوية فى شبه الجزيرة .

أما بالنسبة للعامل الثانى ، فعلى الرغم من أن المفهوم الإسلامى للجماعة كان يوحد العالم العربى ، فإن هذه الوحدة لم تك وحدة عضوية ، بل وحدة حضارية . فقد كان هذا المجتمع العربى مفتتاً إلى وحدات اجتماعية صغيرة تحكم نفسها بنفسها ، ولا يخضع أفرادها خضوعاً مباشراً للحكومة . وهذه الوحدات الصغيرة هى ما تعرف بالطوائف . ذلك أن كل من كانوا يباشرون أى مهنة ، كانوا ينتظمون فى طوائف معترف بها ، لها لوائح منظمة ، ورؤساء منتظمون ، ومقادير معينة من الضرائب المفروضة عليها . وهذه الطوائف كانت هى المجال الذى يمارس فيه المواطن العربى حق المواطنة ، ويجد فيه التعبير عن غرائزه الاجتماعية والاطمئنان إلى مكانته فى النظام الاجتماعى ، ويأمن فيه من تدخل حكامه السياسيين ، الذين كانوا بوجه عام يحترمون استقلال الطوائف . ولا يتدخلون فى شئون أفرادها إلا بشكل طفيف وبشكل غير مباشر ، عن طريق شيخ كل طائفة ، الذى يدير شئونها الداخلية ، ويمثل همزة الوصل بين الطائفة والإدارة . ومما كان ينمى الوظيفة الاجتماعية للطوائف ، ارتباط معظمها بإحدى الطرق الصوفية ، وتواجدها فى وحدات سكنية ذات كيانات مستقلة هى الحارات .

وإلى جانب هذا الانقسام إلى طوائف ، الذى كان مرتكزاً فى المدن ، كانت

هناك انقسامات أخرى على أسس مختلفة ، هى الانقسامات إلى بدو ، وحضر وفلاحين ، وإلى مسلمين ، وأقباط ، ويهود . وهذه الانقسامات كانت تفصل بينها حواجز جامدة لا تقل قوة عن الانقسامات على أسس اقتصادية .

على أن هذا المجتمع العربى ، بصفاته الوحدوية والتفتيتية ، التى كانت تحول دون نمو الشعور القومى وظهور الفكرة القومية بمعناها الحديث ، لم يلبث خلال القرن التاسع عشر أن أخذ يعاد تركيبه من جديد على أساسين : ـ

الأساس الأول طبقى .
والأساس الثانى قومى .

وبالنسبة للأساس الأول ، فإن تدفق رأس المال على المنطقة العربية بعد منتصف القرن التاسع عشر ، وما تبعه من نشأة المشروعات الحديثة ، وتقدم وسائل النقل والمواصلات ، وازدياد النشاط التجارى ، قد أدى إلى نتيجتين :

النتيجة الأولى : تضاؤل دور الحرف اليدوية فى المدن تدريجيًّا إلى جوار الإنتاج الآلى الحديث ، وتضاؤل دور الطبقة الحرفية القديمة بالتالى ، بما يعنيه ذلك من تدهور نظام الحرف .

والنتيجة الثانية : ظهور طبقة بورجوازية حديثة تدريجيًّا تختلف عن طبقة الحرفيين ، ذات صبغة كومبرا دورية ، أخذت فى الاستقلال تدريجيًّا عبر صراعات محتدمة بينها وبين الرأسمالية الأجنبية . يقول لويس فارلى Farely الذى كان يقيم فى بيروت سنة ١٨٦٣ : « منذ سنوات قليلة ، كان التجار الكبار من الأجانب . أما الآن فإنهم من اللبنانيين ، ويستقبلون فى بيروت السفن المحملة بالبضائع باسمهم » .

ومع نشأة الطبقة البورجوازية ، نشأت طبقة بروليتارية جنينية تتناقض

مصالحها مع مصالح الطبقة البورجوازية . وبذلك أخذ المجتمع ينقسم إلى طبقات اقتصادية . ومع أن هذا التغيير كان بطيئاً ومحدوداً ، واستغرق وقتاً طويلا ، فإنه على كل حال شهد بداية تحول المجتمع العربى من مجتمع طوائف إلى مجتمع طبقات .

أما بالنسبة للأساس الثانى . وهو الأساس القومى ، فقد ساعد على قيامه - إلى جانب العوامل السابقة - العوامل الآتية :

أولا : التطور الذى تعرض له التكوين الاجتماعى للجيوش العربية ، فقد كانت هذه الجيوش تتكون من المماليك حتى أواخر القرن الثامن عشر ، ثم أخذ استقدام المماليك يبطل تدريجيًّا تحت عوامل عديدة ، أهمها : الدعوة إلى محاربة الرق التى أخذت تبرز من أواخر القرن الثامن عشر ، وتقوى على طول القرن التاسع عشر ، حتى انتهت بإبطاله نهائيًّا ، إلا فى مناطق محدودة . ثم عدول السلطة العثمانية وعدول حكومات الولايات العثمانية الممتازة عن استقدام المماليك ، لثبوت كونهم مصدراً للشغب والاضطراب والنهب ، وعجزهم عن مجاراة النظم العسكرية الحديثة ، فضلا عن أن تكوين جيوش كبيرة من المماليك والمرتزقة يتطلب نفقات جسيمة . وبظهور الجيوش التى يتألف سوادها الأعظم من أبناء الأوطان العربية ، برزت الصبغة القومية ووضحت مدلولات الأمة والقومية .

ثانياً : استقرار المجتمعات العربية تدريجيًّا مع اختفاء الهجرات وحركات العشائر والقبائل التى كانت تطيح بالسكان وأهل الزراعة خاصة بهم ، وكانت البلاد العربية عموماً ، والعراق وسوريا خصوصاً ، تتعرض لهجرات واسعة النطاق ، خصوصاً فى الأزمنة الحديثة ، كما حدث من حركات شمر وعنزة نحو بادية الشام والعراق فى القرنين السابع عشر والثامن عشر . ولكن فى القرن التاسع عشر أخذت تقل هذه الحركات حتى أصبحت قاصرة على الحركات الموسمية من مرعى إلى مرعى ، وأخذت القبائل فى الاستقرار منذ منتصف القرن التاسع عشر .

ثالثاً : ظهور أنظمة حكم مستقرة فى الأقطار العربية بعد أن كان الحكم واقعا فى أيدى المغامرين من المماليك وأصحاب العصبيات . ومن أمثال هذه الأنظمة المستقرة ما أقامته السلطة العثمانية فى سوريا من حكومات بعد جلاء القوات المصرية فى ١٨٤٠ - ١٨٤١ ، وفى بغداد يعد عزل داود باشا آخر الباشوات المماليك ، وفى طرابلس الغرب بعد عزل القرامنلية فى عام ١٨٣٤ ، ثم ما قام فى الولايات الممتازة ، كمصر وتونس . ومع هذه الأنظمة المستقرة تحددت حدود الأوطان العربية ، وتبينت معالمها ، واكتسبت كيانات ، وظهرت الجماعات السياسية المنظمة والعمل السياسى المنظم .

رابعاً: غزو الفكر القومى الليبرالى - وقد وفد هذا الفكر من مصدرين :

المصدر الأول : الثورة الفرنسية
والمصدر الثانى : الثورة الأمريكية .

وبالنسبة للمصدر الأول : فإن أكثر الذين أقاموا من العرب فى فرنسا فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، عادوا وفى جعبتهم آراء جديدة تتناقض مع الآراء السائدة القديمة التى اعتمدت الإسلام أساساً لبناء المجتمع ، ولا ترى من جامعة تجمع أفراد الأمة سوى الجامعة الإسلامية - وهذه الآراء التى عادوا بها كانت عن المواطنة والحرية والدستور والوطنية .

وفى لبنان بصفة خاصة لعب المصدر الثانى ، وهو الثورة الأمريكية ، دوراً لم يتضح فى مكان آخر من العالم العربى ، بسبب الجماعات التبشيرية التى وفدت من الولايات المتحدة فى مطلع القرن التاسع عشر ، لتعمل مع الجماعات التبشيرية القومية .

وقد تصادف ورود هذه الآراء الحديثة فى وقت كانت أكبر قوة إسلامية فى العالم فى ذلك الحين ، وهى الدولة العثمانية ، تتدهور تدهوراً حقيقيًّا ، وتتدهور معها ما تمثله من آراء ونظم وحكم ومبادئ .

على أن هذا الشعور القومى لم يتبلور فى شكل « عربى » فى ذلك الحين إلا فى المنطقة التى تشمل اليوم : العراق وسوريا ولبنان وفلسطين والأردن والحجاز ، أى فى الأجزاء الشرقية فقط . فى حين اتخذ فى مصر والجناح الغربى للعالم العربى فى شمال أفريقيا شكلا يرتبط بحدود الوطن ، لأسباب فرضتها ظروف حركات التحرر الوطنى فى هذه البلاد الأخيرة ضد الاستعمار الغربى ، والتناقضات الطبيعية الحادة بين خصائص كل شعب وخصائص المستعمر الذى كان يختلف من بلد إلى بلد . فى حين كان هذا التناقض فى الجناح الشرقى يختفى لحد كبير بسبب استمرارية هذا الجناح برمته تحت السلطة العثمانية دون تغيير ، واستمرار السياسة الإسلامية للسلطة العثمانية .

وهذا يفسر كيف أن الشعور القومى فى هذه المنطقة لم ينشأ إلا كرد فعل للشعور القومى الذى حدث فى السلطنة العثمانية ، واتخاذه شكل محاولة تتريك العرب وحملهم على نسيان لغتهم وتاريخهم ليصبحوا جزءاً من تركيا الطورانية . فمنذئذ برز التناقض بين خصائص شعوب هذه المنطقة وخصائص الأتراك ، على نحو شبيه بما حدث فى مصر والجناح الغربى للوطن العربى . ولما كانت اللغة هى أبرز الملامح القومية لأى شعب من الشعوب ، فهنا أخذ الشعور القومى يتبلور فى شكل حركة قومية عربية فى مواجهة القومية التركية .

٢ - الحركة القومية العربية

عبرت الحركة القومية العربية عن نفسها فى ثلاثة اتجاهات فكرية رئيسية ، تتدرج صيغها من الإسلامية إلى القومية ، وهى :

١ - **الاتجاه إلى إقامة خلافة عربية** : وقد نادى به عبد الرحمن الكواكبى الذى سجل آراءه فى كتابيه المشهورين « أم القرى » ، « وطبائع الاستبداد » . ولا يعد الكواكبى قوميًّا إلا من هذه الوجهة ، وهى أنه كان يميز بين المسلمين العرب والمسلمين غير العرب تمييزاً دقيقاً ، وتأكيده الشديد على المكانة الخاصة التى يجب أن يحتلها العرب فى الإسلام بفضل لغتهم وشرف نسبهم ، ودعوته إلى نقل الخلافة من آل عثمان إلى العرب ، ومن شاطئ البوسفور إلى مكة ، على أساس فضل العرب وتفوقهم على الأتراك .

٢ - **الاتجاه إلى الاستقلال عن الدولة العثمانية** : وكان موجوداً فى المسيحيين اللبنانيين بصفة خاصة ، ويطالب بتحرير لبنان من الحكم التركى . ويرجع السبب فى ذلك إلى افتقار المسيحيين إلى شعور الانتماء للإمبراطورية العثمانية ، وإحساسهم بالغربة فيها ، على العكس من المسلمين الذين كانوا يرون فى الإمبراطورية العثمانية إمبراطورية إسلامية ، ويشعرون أنها إمبراطوريتهم . هذا فضلا عن أحداث سنة ١٨٦٠ التى أدت إلى منح لبنان نظاماً ممتازاً قائماً على أساس واسع من الاستقلال .

وقد عبر هذا الاتجاه عن نفسه أول ما عبر فى « جمعية بيروت السرية » التى شكلها فى عام ١٨٧٥ خمسة من شباب الكلية السورية البروتستانتية فى بيروت ، وكانوا جميعاً من المسيحيين ، وقد شعروا بأنه لن يتيسر لهم تحقيق

مأربهم إلا بإشراك المسلمين والدروز معهم ، ووجدوا فى العروبة قاسماً مشتركاً بينهم وبين الإسلام ، وبذلك أمكنهم بعد مدة إدخال اثنين وعشرين عضواً آخرين ينتمون إلى الطوائف المختلفة ، وأنشأوا فروعاً لهم فى دمشق وطرابلس الشام وصيدا . وبذلك تكونت أول جبهة عربية موحدة تقوم على فكرة العربية .

وقد تضمنت النشرات الثورية التى أصدرتها الجمعية فى بيروت عام ١٨٨٠ برنامجاً اشتمل على أهداف الجبهة ، وينص فيما ينص على : منح الاستقلال لسوريا متحدة مع لبنان ، والاعتراف باللغة العربية كلغة رسمية للبلاد . وقد ناشدت الناس أن يذكروا أمجادهم الغابرة ، ويطردوا الأتراك من الأرض العربية ، ويتحرروا من فساد الحكم التركى . وقد استمر نشاط هذه الجمعية السرية حتى عام ١٨٨٢ أو ١٨٨٣ حين اعتبرت نفسها جمعية منحلة .

كان برنامج جمعية بيروت السرية فى عام ١٨٨٠ ، أول برنامج يدعو إلى تأليف دولة مستقلة على أساس قومى . ولكنه كان سابقاً لعصره ، فلم يكن له نتيجة ملموسة أو ظاهرة ، وإن بقى أثره كامناً فى الزوايا الخفية للوعى العربى العام .

وفى عام ١٩٠٤ قام نجيب عزورى ، وهو عربى مسيحى ظهر نشاطه فى أواخر عهد عبد الحميد ، بتشكيل جمعية فى باريس عرفت باسم « رابطة الوطن العربى » ، غايتها تحرير بلاد الشام والعراق من سيطرة الترك . وقد وجهت هذه الجمعية عدداً من النداءات الملتهبة إلى العرب تحضهم على الثورة . وفى سنة ١٩٠٥ أصدر كتاباً باللغة الفرنسية عنوانه « يقظة الأمة العربية » وجه فيه بياناً شديداً إلى الدول الكبرى أكد فيه رغبة العرب ، الذين يعون أنهم أمة واحدة يوحد بينها التاريخ والشعور الوطنى ووحدة العرق - فى الانفصال عن الأتراك . ويطالب بتأسيس دولة عربية مستقلة « من وادى دجلة والفرات إلى السويس ، ومن البحر المتوسط إلى بحر عمان ، تكون ذات صبغة علمانية .

وتأسيس دولة مستقلة أخرى ذات طابع دينى تتكون من ولاية الحجاز بحدودها فى ذلك الحين ، مضافاً إليها مقاطعة المدينة ، ويكون حاكمها فى الوقت نفسه خليفة للمسلمين ، وبذلك يتم فصل الدين عن الدولة . على أن نشاط عزورى لم يترك تأثيراً فى الحركة القومية بسبب صدوره من عاصمة أجنبية وبلغة أجنبية .

٣ - **كان الاتجاه الفكرى الثالث** : هو الاتجاه الذى يطالب بالإصلاح والاستقلال الذاتى فى إطار الإمبراطورية العثمانية . وكان هذا الاتجاه هو الاتجاه الرئيسى فى الحركة القومية العربية لعدة أسباب ، أهمها : أن التاريخ العثمانى كان يبدو فى عين العرب المسلمين فى ذلك الحين تتمة للتاريخ الإسلامى العام . فقد كانت الدولة العثمانية دولة إسلامية بكل معنى الكلمة ، وكانت تعامل المسلمين من العرب معاملة تختلف عن معاملتها للمسيحيين فهم يدعون إلى الخدمة العسكرية ويشتركون فى حروب الدولة وانتصاراتها وهزائمها ، بينما كان المسيحيون العرب يعيشون على هامش حياة الدولة ، شأنهم فى ذلك شأن سائر العناصر المسيحية الأوروبية التابعة للسلطة .

ثانيا ، أن الدولة العثمانية كانت ، فى نظر قادة الفكر والزعماء العرب من المسلمين ، هى الدولة الاسلامية القوية الرحيدة القادرة على التصدى لأخطار الغزو الاستعمارى الأوروبى ، ومن ثم فان الانفصال عنها يؤدى فى نظرهم إلى ضعفها واقتسام البلاد العربية بين الدول الاستعمارية .

وقد عبر هذا الاتجاه عن نفسه فى البداية فى شكل مهاجمة مساوىء الحكم التركى ، والمطالبة بالاصلاح فى البلاد العربية الواقعة تحت حكم الاتراك . ولما كانت فكرة الانفصال عن الدولة العثمانية غير قائمة كما ذكرنا ، فقد كان من الطبيعى أن يشترك عدد كبير من أنصار هذا الاتجاه فى العمل مع أحرار الترك المطالبين بالاصلاح . فقد تكونت جمعية سرية فى دمشق مؤلفة من أعضاء عرب وترك ، هدفها السعى للقضاء على استبداد السلطان عبد الحميد ، وكان لأفراد

هذه الجمعية اتصال سرى بقادة حركة تركيا الفتاة ، « على أساس العمل على ابلاغ عرب الدولة حقوقهم ضمن الرابطة العثمانية » .

وفى سنة ١٩٠٣ تكونت « **حلقة دمشق الصغيرة** » ، لمطالبة الدولة العثمانية باتخاذ نظام مركزى لها يضمن للعرب حقوقهم فى الحكم ، ويجعل لغتهم فى الولايات العربية لغة رسمية فى مدارس الحكومة ودواوينها ومحاكمها .

وفى سنة ١٩٠٥ تألفت « **جمعية النهضة العربية** » السرية ، فى اسطنبول ، على أن يكون مركزها الثابت فى دمشق ، لبث فكرة القومية العربية . وفى مصر أنشأ الزعماء العرب « **جمعية الشورى العثمانية** » فى ١٨٩٧ ، التى كان هدفها معارضة استبداد عبد الحميد ومحاولة تغيير شكل الحكومة إلى النظام النيابى . وكان للجمعية فروع فى أنحاء الامبراطورية العثمانية ، وتطبع منشوراتها باللغتين العربية والتركة .

وقد اشتد هذا المفهوم القومى للاستقلال بعد نجاح « جمعية الاتحاد والترقى » فى الوصول إلى الحكم وسقوط عبد الحميد - وذلك كرد فعل لسياسة التتريك التى اتبعها الاتحاديون ، وظهور فكرة الجامعة الطورانية . فقد تجاوز هذا المفهوم مفهوم الاصلاح الدستورى ، بعد أن ثبت أن علة الوضع ليس هو الظلم وفساد الادارة ، وإنما هو نظام الحكم نفسه . وتألفت فى الفترة من ١٩٠٨ - ١٩١٣ عدة جمعيات علنية وسرية أهمها ما يلى :-

الاتحاد العربى ، وهى جمعية علنية تأسست فى « فروق » عام ١٩٠٨ ، ومؤسسوها جماعة من الجالية العربية فى تلك العاصمة . وكان برنامجها يقوم على النهوض بالعرب ، والمحافظة على حقوقهم . وقد أغلقت الحكومة أبوابها عند خلع السلطان عبد الحميد ، كما ألغت الجريدة التى أصدرتها .

المنتدى الأدبى : وهو ناد علنى تأسس فى فروق أيضاً فى خريف عام ١٩٠٩

وعلى رأسه عبد الكريم قاسم خليل ، وكان هذا النادى يعمل فى الشئون الأدبية والثقافية فى الظاهر ، وبالشئون القومية فى الباطن . وقد أصدر مجلة تعبر عن أهدافه باسم « لسان العرب » أولا ، ثم باسم « المنتدى الأدبى » ثانياً . وقد أغلق الترك أبوابه فى عام ١٩١٥ بعد أن أثر تأثيراً كبيراً فى الحركة القومية .

العربية الفتاة : وهى جمعية سرية تأسست فى باريس فى ١٤ نوفمبر ١٩٠٩ وكان مبادؤها القومى ، الذى يقسم عليه العضو ، هو « بذل كل جهد لإيصال الأمة العربية إلى مصاف الأمم الراقية الحرة المستقلة الكبرى » . وقد التحق بها قبل الحرب العالمية الأولى نحو ستين عضواً . والتحق بها أيام الحكومة العربية الفيصلية فى سوريا ثمانون عضواً . وقد برز من أعضائها أكبر الشخصيات الوطنية التى أدارت شئون هذه الحكومة العربية ، كما أدارت شئون حكومة العراق أيضاً بعد أن أصبح فيصل ملكاً عليها .

الجمعية القحطانية : وهى جمعية تأسست فى عام ١٩٠٩ أو ١٩١٠ ، وهدفها إيقاظ العرب من سباتهم وتذكيرهم بماضيهم المجيد وكيانهم القومى الحاضر ، وحقهم فى المطالبة بما لهم من حقوق فى الدولة . وظلت تقوم بعملها السرى حتى قامت الحرب العالمية الأولى . وقد دخل معظم أعضائها إما فى حزب العهد ، أو فى جمعية العربية الفتاة .

حزب اللامركزية فى مصر : وهو حزب علنى تأسس فى عام ١٩١٢ فى القاهرة من الشاميين المقيمين فى مصر ، وكان يهدف إلى جعل الإدارة الحكومية فى ولايات الدولة العثمانية قائمة على أساس اللا مركزية ، وأسس فروعاً فى العراق . وقد عده الأتراك فى أثناء الحرب العالمية الأولى من الأحزاب الثائرة على الدولة .

الجمعية العمومية الإصلاحية : وهى جمعية علنية تأسست فى بيروت فى يناير سنة ١٩١٣ ، وارتكزت على اللا مركزية أساساً للمطالب الإصلاحية .

وعندما أحدثت جمعية الاتحاد والترقى انقلاباً حكومياً فى العاصمة ، سارعت إلى حل الجمعية ، مما أثار استياء شديداً عم الولايات العربية كلها .

حزب العهد : وهو حزب سرى عسكرى تأسس فى الآستانة فى عام ١٩١٣ ، وعلى رأسه عزيز المصرى . وقد تألف من العناصر العسكرية العراقية والشامية ، وأسس له فروعًا فى المدن الكبرى فى الشام والعراق . وهدفه الحصول على إدارة مركزية أو استقلال داخلى للبلاد العربية فى إطار الدولة العثمانية . وقد اشترك بعض أعضائه فى الثورة العربية الكبرى فى الحجاز ، ثم كان منهم أركان الجيش السورى فى أيام الحكومة العربية فى دمشق ، واشترك بعضهم فى الثورة العراقية ، وبعضهم فى الثورة السورية ، وكان بينهم أركان فى الوزارات العراقية والجيش العراقى بعد أن أصبح فيصل ملكًا على العراق .

وإلى جانب هذه الجمعيات ، تأسست « **جمعية البصرة الإصلاحية** » ١٩١٣ ، « **والعلم الأخضر** » ، « **والنادى الوطنى العلمى** » فى بغداد .

وجميع هذه الجمعيات - كما رأينا - كانت تطالب بمزيد من الاستقلال للعرب ، والاعتراف بأمة عربية واحدة ذات كيان قومى ، ولكن دون أن يكون هذا الكيان منفصلاً تمام الانفصال عن الدولة العثمانية .

المؤتمر العربى الأول فى باريس ١٩١٣ :

على كل حال فقد تبلوراتجاه هذه الجمعيات فى أول مؤتمر عربى عقد فى باريس فى الفترة من ١٨ - ٢٣ يونيو ١٩١٣ ، ودعت إليه الجالية العربية فى باريس بالتعاون مع حزب اللامركزية فى القاهرة . وكانت أهم مسألتين فى جدول الأعمال هما : حقوق العرب فى الدولة العثمانية ، والإصلاح الإدارى على أساس اللامركزية . ولم يبحث المؤتمر قضية الانفصال ، على أساس أن « الأمة

العربية لاتريد إلا أن تستبدل بشكل الحكم الفاسد الذى يكاد يودى بالدولة حكماً يقوم على قاعدة اللامركزية ، وإلا حكومة عثمانية ، لاتركية ولا عربية ، يتساوى فيها جميع العثمانيين فى الحقوق والواجبات » . على أنه أكد ، أكثر مما أكدته الأحزاب والجمعيات التى تألفت قبله ، على أن العرب (دون إبراز حدود الكلمة) أمة مستقلة وأمة ذات ماض خالد ومستقبل مرجو الخير ، وأنه إذا كانت اللامركزية هى الوسيلة الوحيدة التى رآها المؤتمر ضماناً لحقوق العرب ومصيرهم ، فإنه إذا لم ينجح هذا النظام ، فإنهم يكونون أحراراً فى اختيار أى مطلب آخر (وقد عنوا بذلك الاستقلال التام ، تلميحاً دون تسمية) .

وقد اضطرت حكومة الاتحاد والترقى إلى التوصل بالفعل إلى اتفاق مع زعماء المؤتمر تمنح بموجبه الولايات العربية جميع المطالب التى تقدمت بها ، وإجراء الإصلاح على قواعد اللامركزية الإدارية . ولكن الروح القومية التركية أخذت تعبر علناً عن عدائها الشديد لكل ماهو عربى ، مما أوقع العداوة مرة أخرى بين العرب والأتراك وجاءت ظروف الحرب العالمية الأولى ليتخذ منها الاتحاديون فرصة لتصفية القوى القومية ، وتنفيذ سياسة التتريك ، ولعب حكم جمال باشا السفاح فى سوريا دوراً حاسماً فى دفع الأحداث إلى صدام محقق بين القومية العربية والقومية التركية . وهو الصدام الذى تمثل خير تمثيل فى الثورة العربية الكبرى .

٣ - الثورة العربية الكبرى

بعد أن قطع الوطنيون العرب كل أمل فى إمكانية التفاهم مع الأتراك ، لم يروا بدًّا من الثورة . ولكن لما كانت تنظيماتهم محدودة الانتشار حديثة العهد ، فلم يكونوا لذلك قادرين على عمل حاسم إلا بالاعتماد على حليف ، وقد تمثل هذا الحليف فى شخص الشريف حسين وأبنائه وزعماء القبائل التى انضمت إليه .

وكان الشريف حسين قد ولى إمارة مكة فى عام ١٩٠٨ بعد استيلاء الاتحاديين على الحكم . وكان منذ ولايته قد أخذ يعمل على تقوية مركزه باستعادة الامتيازات التى منحها السلطان سليم الأول لأمراء مكة ، وخولهم بموجبها الهيمنة على شئون الحجاز والإشراف على الحج - وكان أسلافه قد أهملوا التمسك بها . وفى الوقت نفسه أخذ يبدى اعتراضه على مد سكة حديد الحجاز من المدينة إلى مكة ، لأنه كان يخشى أن يؤدى نجاح الاتحاديين فى تنفيذ المشروع إلى سيطرتهم المباشرة على الحجاز . ومن هنا أخذ الخلاف يدب بين الطرفين . ووجد الشريف حسين نفسه عند نشوب الحرب العالمية الأولى ، فى حاجة إلى جس نبض الحكومة البريطانية للوقوف على مدى استعدادها لمساعدته إذا نشب النزاع بينه وبين الدولة العثمانية ، وكانت الحكومة البريطانية ترى انضمامه إلى جانب الحلفاء فى حال دخول تركيا إلى جانب ألمانيا .

على أنه ، من جانب آخر ، لما كانت مطامع الحسين تتجاوز حدود الحجاز إلى المشرق العربى ، فمن هنا حدث الالتقاء بين هذه المطامع وآمال القوميين العرب ، الذين رأوا فى انحدار الحسين من عائلة ذات نفوذ دينى وعربى كبير ، الحل الوحيد لخلاف يمكن وقوعه على الزعامة بين سورى وعراقى أو فلسطينى .

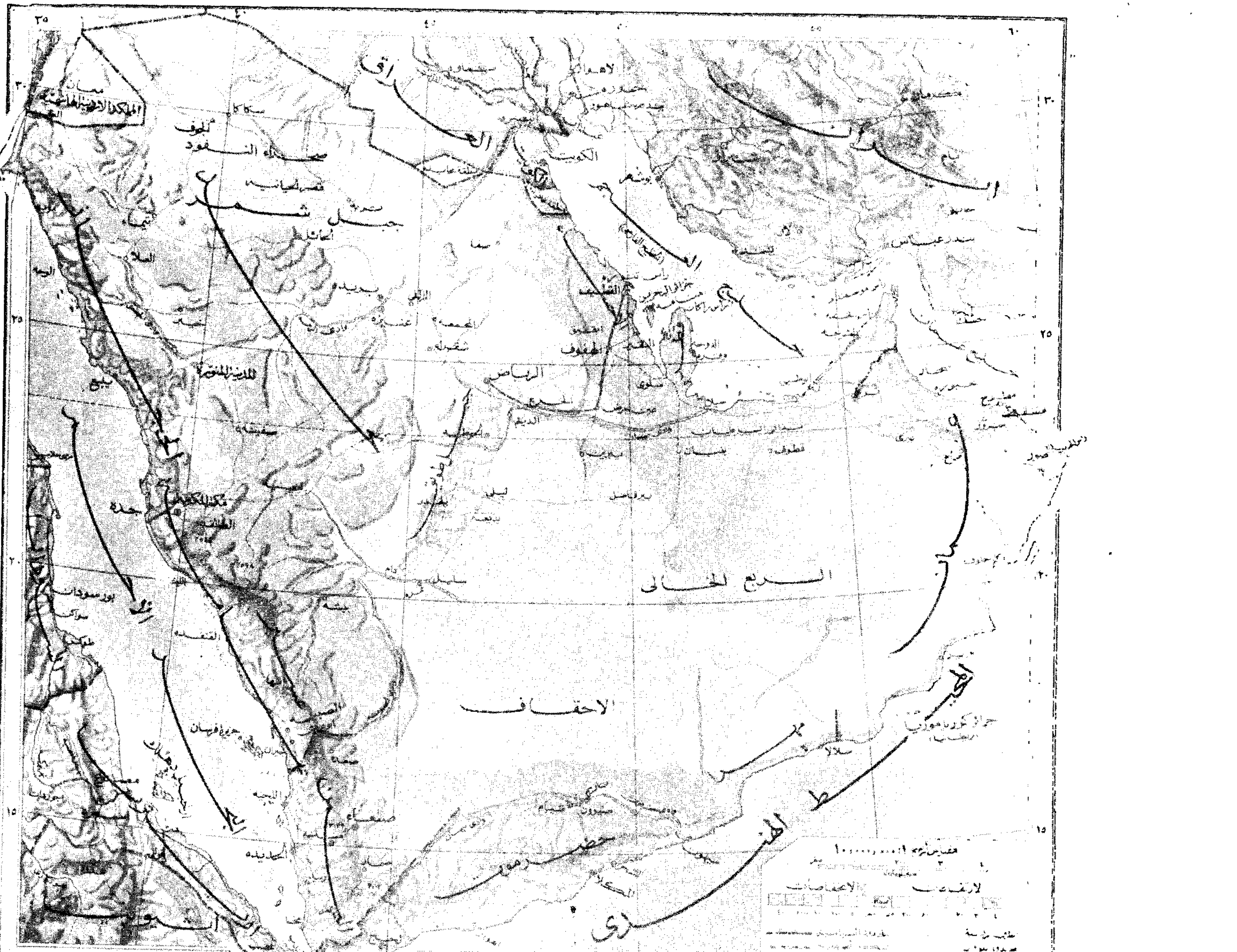

صحراء النفود
الجوف
جبل شمر
الكويت
بوشهر
بندرعباس
الرياض
المدينة المنورة
ينبع
جدة
مكة المكرمة
بورسودان
الربع الخالي
الاحقاف
صنعاء
الحديدة
حضرموت
مسقط

وقد بدأت الثورة فى دور التنفيذ حينما أرسلت جمعية « الفتاة » برسالة شفوية إلى الشريف حسين يحملها رسول ، يتلخص مضمونها فى أن الزعماء القوميين فى الشام والعراق ومنهم الضباط العرب فى الجيش التركى ، يحبذون القيام بثورة لتحقيق استقلال العرب ، ويعرضون عليه قيادتها . وسرعان ما أرسل الشريف حسين ابنه فيصل إلى دمشق لإجراء الاتصال بالزعماء العرب ، بعد أن ثبت له تآمر الحكومة العثمانية لاغتياله . وفى دمشق التى وصلها فيصل فى مارس سنة ١٩١٥ ، اجتمع بالأعضاء البارزين فى « جمعية الفتاة » كما اجتمع بأعضاء جمعية العهد ، المنظمة السرية لضباط الجيش ، وانتسب إلى الجمعيتين . وفى هذا اللقاء أعد الزعماء العرب بيانًا بشروط التعاون مع بريطانيا ، التى عرفت ببروتوكول دمشق » وتقضى بالآتى :

أولاً : اعتراف بريطانيا باستقلال البلاد العربية الواقعة ضمن الحدود التالية :

شمالاً : خط مرسين – أضنة حتى درجة ٣٧ شمالاً . ومنها على امتداد خط بريجيك – أورفة – ماردين – مديات – جزيرة ابن عمر – عمادية حتى حدود فارس ، وشرقًا : الحدود الفارسية حتى خليج فارس ، وجنوبًا : المحيط الهندى (خلا عدن التى تحافظ على وضعها الحالى) . وغربًا : البحر الأحمر والبحر المتوسط حتى مرسين .

ثانيًا : عقد تحالف دفاعى بين بريطانيا العظمى والدولة العربية المستقلة .

ثالثًا : منح بريطانيا الأفضلية فى الشئون الاقتصادية .

وتضم هذه الأراضى : سوريا ، وفلسطين ، والعراق ، وجميع الجزيرة العربية ماعدا عدن .

وقد اتخذ الحسين هذه المطالب أساسًا للمفاوضة مع بريطانيا فى مراسلاته

المشهورة مع مكماهون ، المندوب السامى البريطانى فى مصر . ولكنه اضطر ، تحت الرغبة فى التحالف مع بريطانيا ، وتطرف أعمال الأتراك ضد القوميين العرب ، إلى التنازل عن ولايتى مرسين وأضنة ، ووافق على طلب بريطانيا استثناء بيروت وسواحلها (أى لبنان الصغير) التى لفرنسا مصالح فيها ، من نطاق الوحدة والاستقلال مؤقتاً ، على أن يعود إلى المطالبة بها حالما تنتهى الحرب . كما وافق على أن تقوم بريطانيا بإدارة ولايتى بغدادوالبصرة خلال فترة الحرب نظير دفع مبلغ من المال لم يحدده الطرفان . ثم وافق على أن تحترم الحكومة العربية المعاهدات التى كانت بريطانيا قد عقدتها سالفاً مع بعض الزعماء العرب (إمارة آل سعود ، وإمارة الكويت ، وإمارة البحرين ومسقط وعمان ومشيخات حضرموت ولحج) ، وفى مقابل ذلك أبدى مكماهون استعداد حكومته للاعتراف باستقلال العرب ، وتأييد هذا الاستقلال فى جميع الأقاليم التى اقترحها الشريف حسين مع مراعاة التعديلات التى قبلها الأخير ، وضمان حماية الأماكن المقدسة من أى اعتداء .

كان العرب فى بادئ الأمر يضعون الخطط للقيام بالثورة فى سوريا والحجاز فى آن واحد ، ولكن التأخير فى إعلان الثورة أدى إلى إتاحة الفرصة للأتراك لاعتقال معظم الزعماء القوميين ليعدموهم ، وإبعاد قادة الجيوش العرب إلى مناطق نائية لمنعهم ووحداتهم من الاشتراك فى الثورة - الأمر الذى أدى إلى حرمان الثورة من عناصر جيش نظامى فعال وكبير نسبيًّا ، وإلى ضرورة الاعتماد على جيش الشريف حسين البدوى المؤلف من المرتزقة والمتطوعين .

وفى يوم ٥ يونيو ١٩١٦ أعلن الأميران على وفيصل فى المدينة باسم أبيهما شريف مكة استقلال العرب عن الحكم التركى . وفى يوم ١٠ يونيو أطلق الشريف حسين أول رصاصة على الأتراك فى مكة معلناً قيام الثورة . وبدأ الهجوم فى مكة على ثكنات ومواقع الحامية العثمانية . وفى مدى ثلاثة أشهر أخرى كانت الثورة قد استطاعت الاستيلاء على مدن الحجاز الكبرى ، باستثناء المدينة المنورة ، التى بقيت محاصرة حتى آخر الحرب .

وفى يوم ٢ نوفمبر سنة ١٩١٦ ، ودون أن ينتظر الحسين نهاية الحرب أعلن مبايعته ملكًا على الأمة العربية ، وقام بتنظيم حكومة فى مكة ، وأسند رئاسة الوزراء إلى ابنه على ، ووزارة الخارجية إلى عبد الله ، وبذلك أعطى الثورة صورة دولة ، بعد أن كانت فى نظر الأتراك عملاً من أعمال العصيان ، وفى عين أعداء الأتراك عملاً من أعمال الثوار . ولكن إنجلترا وفرنسا اعترضتا ، ولم تعترفا بالحسين ملكًا إلا على الحجاز فقط فى ٣ يناير سنة ١٩١٧ .

وفى شهر سبتمبر ١٩١٦ وصل عزيز المصرى إلى الحجاز حيث عينه الشريف حسين وزيرًا للحربية . وقد تمكن عزيز المصرى خلال أشهر ثلاثة من إنشاء بضعة أفواج نظامية ، وخلق نواة جيش الثورة النظامى ، وكان يعاونه عدد من الضباط العرب ، أكثرهم من العراق ، ومنهم نورى السعيد ، ومولود مخلص ، وعلى جودت الأيوبى ، ورشيد المدفعى . ولكن لم يمض وقت طويل على عمل عزيز المصرى ، حتى دب الخلاف بينه وبين الحسين ، فانتهى عمله بعد ثلاثة أشهر .

ولما كان على القيادة البريطانية دراسة نوع وحجم التعاون مع الثورة العربية ، ففى منتصف شهر أكتوبر وصل إلى جدة كل من « لورنس » ، « ورونالد ستورز » ، السكرتير الشرقى بدار المندوب السامى ، وقد بقى لورنس بعد عودة الأخير ، لدراسة الوضع فى الحجاز ، وزار « رابغ » مع عزيز على المصرى . حيث التقى بالأمير على ، وتوجه إلى وادى الصفراء لمقابلة الأمير فيصل . وقد أسفرت نتيجة دراسته للموقف عن نصحه لحكومته بالتخلى نهائيًّا عن فكرة إرسال جنود إنجليز إلى الحجاز ، مع إمداد الشريف بالأسلحة اللازمة إذا أريد استمرار الثورة . وقد عاد لورنس إلى القاهرة ولكن ليعود مرة أخرى إلى الحجاز ، حيث أصبح مستشارًا للأمير فيصل وضابط اتصال بينه وبين السفارة البريطانية .

وفى الفترة من أكتوبر ١٩١٦ حتى ٢٤ يناير سنة ١٩١٧ (تاريخ سقوط

الوجه) شهدت الثورة أحرج فتراتها . فقد كانت حامية الأتراك فى المدينة تتألف من ٤٠٠٠ جندى مسلحة تسليحًا تامًّا ، كما كانت هناك قوات كبيرة أخرى فى محطات سكك حديد الحجاز على طول الطريق بين المدينة ومعان . وكان يقوم على حصار المدينة الأميران على وفيصل ، ولكن قوات فخرى باشا تمكنت من رد هجمات الأميرين ، ودفعت بالأول إلى « رابغ » ، ودفعت الثانى إلى « ينبع البحر » ، وأخذت فى التضييق عليهما ، وبدا زحف الأتراك على مكة أمرًا محتملاً . ومع أن الحسين ألح على البريطانيين لإرسال التعزيزات والأسلحة ، فإن الحكومة البريطانية اعترضت على إرسال قوات ، تحت ذريعة الخوف من اتهام العالم الإسلامى لها ، خاصة الهند ، باحتلال الأماكن المقدسة .

على أن الانتصارات التى أحرزها الأمير عبد الله قائد الجيش الشرقى ، لم تلبث أن أنقذت الموقف . فقد بعث بقوات احتلت « حجر » شرقى « رابغ » ، واتجه بقواته الأصلية ناحية الحنايكة ، وعبر سكة حديد الحجاز ما بين محطتى أبا النعم وهدية ، وظفر بقوة تركية « بالحرة » ، فتراجع فخر الدين باشا من « ينبع النخل » ومن وادى الصفراء ومن بئر سعيد إلى بير درويش ، وتراجع جناحه الأيمن الذى كان يعمل ضد الأمير فيصل من بيرقاظى وسطح الغاير وعبود ، إلى غدير مجز ومجزان وآبار على ، كما تراجع جناحه الأيسر الذى كان يعمل ضد الأمير على ، وبذا تحررت قوات الأمير فيصل ، واتجه شمالاً عن طريق الساحل إلى « الوجه » فاحتلها بدون مقاومة تذكر . وبذلك تحول الوضع العسكرى فى الحجاز تحولاً أساسيًّا لصالح الثورة ، وأصبحت القوات التركية فى الحجاز محصورة داخل خطوط المدينة المنورة ، كما تهددت مواصلات الترك بين المدينة ودمشق تهديدًا خطيرًا ، وأقبلت القبائل على الانضمام إلى الجيش العربى .

وفى الفترة الثانية ، من سقوط « الوجه » إلى سقوط « العقبة » فى يوليو ١٩١٧ ، اشتد حصار العرب للأتراك فى المدينة ، وكثرت الإغارات على محطات سكة حديد الحجاز ونسف القضبان الحديدية وقطع أسلاك التلغراف ، وفى

الوقت نفسه أخذ فيصل ، بعد الاستيلاء على الوجه ، يستعد عسكريًّا وسياسيًّا للزحف شمالاً إلى دمشق . وقد لعب « عودة أبو تاية » ، وهو زعيم إحدى عشائر قبيلة الحويطات المقيمة إلى الشرق من معان ، دورًا رئيسيًّا فى هذا السبيل ، فقد ذهب فى حملة صغيرة يقودها ناصر بن على ويرافقها لورنس ، وتمكن من تكوين جيش من المتطوعين زحف به على العقبة واستطاع الاستيلاء عليها فى ٦ يوليو ١٩١٧ . ولم تلبث القوات النظامية فى الجيش الشمالى أن انتقلت من الوجه إلى العقبة ابتداءً من أول شهر أغسطس . وفى أواخر الشهر انتقل فيصل بنفسه إلى العقبة واتخذها مقرًّا لقيادته ، وبذلك انتقل مسرح القتال إلى الشام .

وفى المرحلة التالية حدث التحول الآتى فى جيش فيصل : فقد أصبح جيشًا من القوات النظامية إلى جانب القوات العشائرية ، وتوارت العناصر الحجازية ، وبذلك أصبحت قواته تتألف من سكان سوريا وفلسطين والعراق ، كما أصبحت جزءًا من جيش الحلفاء الزاحف على بلاد الشام بقيادة الجنرال ألنبى ، وانفصل عن قيادة الحجاز .

وكانت قوات ألنبى قد نجحت فى دخول القدس يوم ٩ ديسمبر ١٩١٧ ، وعند نهاية العام كانت فلسطين تحت الاحتلال الإنجليزى ، ولكن ألنبى فشل فى عبور الأردن والاتصال بقوات فيصل فى شرقه ، فى حين حصر فيصل نشاطه فى منطقة معان واستطاع عزلها تمامًا فى ٢٠ من أبريل ١٩١٨ ، وأصبح جيشه يحمى الجناح الأيمن للجيش البريطانى فى فلسطين ، ويحتجز أمامه نصف القوات التركية . وفى يوم ١٨ سبتمبر استطاع عزل درعا تمامًا ، واحتل معان فى يوم ٢٣ سبتمبر ، ثم احتل درعا يوم ٢٧ ، وتسابقت القوات العربية إلى دخول دمشق ، فى حين كان ألنبى على المنطقة الساحلية يقوم بهجوم سريع خاطف . وفى مساء يوم ٣٠ سبتمبر وصل إلى مشارف دمشق الشريف ناصر ونورى شعلان ، ودخلت بعض القوات العربية غير النظامية دمشق لتجد العلم العربى ، علم ملك الحجاز ، يرفرف على بلدية دمشق ، وبذلك انتهى الحكم التركى . وفى

صباح اليوم التالى ، أول أكتوبر ١٩١٨ ، دخلت القوات العربية النظامية دمشق مع القوات المتحالفة . وفى يوم ٣ أكتوبر دخل فيصل دمشق ، وبذلك توجت الثورة العربية .

مراجع للاستشارة :

- ثورة العرب ، مقوماتها ، أسبابها ، نتائجها . بقلم أحد أعضاء الجمعيات السرية (القاهرة فى مطبعة المقطم ١٩١٦) .
- چورچ أنطونيوس : يقظة العرب ، تعريب على حيدر الركابى (دمشق ١٩٤٦) .
- زين نور الدين زين : نشوء القومية العربية (بيروت ١٩٦٨) .
- ساطع الحصرى : محاضرات فى نشوء الفكرة القومية (القاهرة ١٩٥٥) .
- محمد شفيق غربال : العوامل التاريخية فى بناء الأمة العربية (معهد الدراسات العربية ١٩٦١) .
- مذكرات الملك عبد الله (عمان ١٩٦٥) .
- Lawrence, T.E., Seven Pillars of Wisdom (Oxfosd, 1925)